أحاديث إصلاح القلوب

(٢٤)

القلوب آنية

عَنْ أَبِي عِنبَةَ الْخَوْلَانِيِّ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِنَّ لِلَّهِ آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا». رواه الطَّبرانِيُّ في المعجم الكبير، وفي مسند الشَّاميِّين[١].

قال الحافظ العراقيُّ: «رواه الطَّبرانِيُّ وإسناده جيِّد». وقال الهيثميُّ: «إسناد حسن».

لقد شبَّه ﷺ قلوب العباد بالآنية، وحال كلِّ إناء بما جعل فيه من خير أو شرٍّ، كما قيل: كلُّ إناء بالَّذِي فيه ينضح. فقلوب الأبرار تغلي بالخير والبِرِّ، وقلوب الفُجَّار تغلي بالإثم والفجور. قال مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الْأَبْرَارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَإِنَّ الْفُجَّارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْفُجُورِ وَاللهُ يَرَى هُمُومُهُمْ؛ فَانْظُرُوا هُمُومَكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللهِ». رواه أبو نعيم في الحلية[٢].

وقال عَبْدُ اللهِ بْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ لِلَّهِ فِي الأَرْضِ آنِيَةً لاَ يَقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا الصُّلْبَ الرَّقِيقَ الصَّافِيَ، قَالَ: الصُّلْبُ فِي طَاعَةِ اللهِ، الرَّقِيقُ عِنْدَ ذِكْرِ اللهِ،

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في مسند الشَّاميِّين (٨٤٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢١٦٣).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٠).

الصَّافِي النَّقِيُّ مِنَ الدَّرَنِ». رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف[١].

وقوله في الحديث: «**وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا**»؛ لأنَّ القلب إذا لان ورقَّ صار كالمرآة الصَّافية، فقبل الخير ووعاه بما رزق من الصَّفاء والنَّقاء بخلاف القلوب غير النَّقيَّة؛ فإنَّه لا ينفذ إليها الحقُّ ولا تقبله.

ثمَّ إنَّ حركة اللِّسان تدلُّ على ما في القلب من خير أو شرٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمَّد:٣٠] أي: لا بُدَّ أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبيَّن بفلتات ألسنتهم، فإنَّ الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشَّرِّ.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ فِي الصُّدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا وَمَغَارِفُهَا أَلْسِنَتُهَا؛ فَانْتَظِرِ الرَّجُلَ حَتَّى يَتَكَلَّمَ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ بَيْنِ حُلْوٍ وَحَامِضٍ وَعَذْبٍ وَأُجَاجٍ؛ يخْبِرُكَ عَنْ طَعْمِ قَلْبِهِ اغْتِرَافُ لِسَانِهِ». رواه أبو نعيم في الحلية[٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في كتابه (الدَّاء والدَّواء)-: «أي: كما تطعم بلسانك طعمَ ما في القدور من الطَّعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرَّجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٥٦٨٧).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

بلسانك.

ورقَّة القلب وليونته تعدُّ علامة دقيقة على صحَّة القلب وسلامته غير أنَّها خفيَّة لا ترى، فلا يراها إلَّا العليمُ بذات الصُّدور سبحانه، إلَّا أنَّ ثمَّة علامات ظاهرة تدلُّ على صحَّة القلب، ولا يلزم من وجودها أو علم العبد بها من نفسه أو من غيره، أن يُزَكِّي نفسه أو غيره، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم:٣٢]، لكنَّها علامات وشواهد ودلائل على صحَّة القلب، فإذا وجدت في العبد فليحمد الله، وليجاهد نفسه على المحافظة عليها، وليسأل ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثَّبات»[(١)].

وأبرز هذه العلامات الظَّاهرة فيما ذكر العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: (إغاثة اللَّهفان) **ستُ علامات:**

الأولى: ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمواظبة على ذكره، والإكثار من ذلك، وألَّا يفتر من ذكر الله ولا يسأم ولا يمل.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ويدخل في ذكر الله سبحانه: تعلُّم العلم وتعليمه، والتَّفقُّه في دين الله؛ فإنَّ هذا من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن الإقامة لذكره، كما في الحديث: «**إِذَا مَرَرْتُمْ**

---

(١) الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص١٥٩).

بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قيل: وما رياض الجنَّة؟. قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[(١)]، والمراد بحلق الذِّكر أي: مجالس العلم، الَّتِي يُبَيَّن فيها الحلال والحرام، وتُوَضَّح فيها الأحكام، ويُعَرَّف فيها النَّاس بربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبأسمائه وصفاته، وبأوامره ونواهيه.

العلامة الثَّانية: أن يألم عند فوات الوِرد، كأن يكون له -مثلًا- وِرد من اللَّيل يُصَلِّي، أو حزب من القرآن، أو نحو ذلك، فإذا فاته يألم لفواته أعظم من تألُّم الحريص على المال بفواته للرِّبح في ماله؛ لأنَّ الَّذِي هو فيه أعظم، والرِّبح الَّذِي فيه أكبر.

العلامة الثَّالثة: شحُّ صاحبه بالوقت، لحرصه الشَّديد عليه، من أن يضيع، أو أن يذهب سُدًى بغير فائدة؛ لأنَّ جميع المصالح إنَّما تنشأ من حفظ الوقت، فمتى أضاع الإنسان وقته، ضاعت مصالحه، وما فات من الوقت لا يستدرك، ولهذا: جاءت السُّنَّة بالحثِّ على اغتنام الوقت، ولا سِيَّما وقت الشَّباب، والتَّحذير من تضييعه، وعلامة المقت، كما قيل تضييع الوقت؛ لأنَّ المصالح لا تتحقَّق إلَّا بحفظ الإنسان لوقته ورعايته له، وعنايته به.

فمن علامات صحَّة قلب المرء شحُّه بوقته أن يذهب ضائعًا في الأمور

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

الَّتِي لا فائدة فيها، فضلًا عن الأمور المُحَرَّمات، من غيبة، ونميمة، وسخرية، واستهزاء، وغير ذلك.

العلامة الرَّابعة: أن يكون همُّه واحدًا، وأن يكون في الله، فيجعل همَّه لله، ويترك ما سوى ذلك، وقد جاء في المسند وغيره، عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ كَانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»(١).

العلامة الخامسة: من علامات صحَّة القلب: الاهتمام بتصحيح الأقوال والأعمال والنِّيَّات على الإخلاص بحيث تكون كلُّها خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يبتغي بها إلَّا وجه الله.

العلامة السَّادسة: تعظيم الصَّلاة، والمعرفة بقدرها، والإدراك لمكانتها، والرِّعاية لها، والأنس بمجيئها، ودخول وقتها، وحسن الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، وإذا دخل في الصَّلاة وجد فيها راحته ونعيمه وقرَّة عينه وسرور قلبه. وفي الحديث: يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ**»(٢)، ويقول: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٣)، فيدخل فيها بقلب منيب خاضع

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٤٠٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنَّسائيُّ (٣٩٣٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣١٢٤).

خاشع له سبحانه.

وجميع أمور الدُّنيا وشواغلها وهموهما وغمومها كلُّها تنزاح عنه ما كان مقبلًا على صلاته وعبادة ربِّه ومولاه مطمئنًا خاشعًا.

وفرق بين مَن يُصَلِّي وهو يوافي في صلاته الرَّاحة وسرور القلب، وقُرَّة العين، ونعيم البال، وبين مَن يُصَلِّي وهو قلق ومتضجِّر ويريد الرَّاحة والخلاص من هذه الصَّلاة.

ولهذا: الأوَّل يشتدُّ عليه الخروج من صلاته، إذا انتهت الصَّلاة اشتدَّ عليه الأمر؛ لأنَّه خرج من لذَّة وقُرَّة عين، وراحة بال، فيشتدُّ عليه الخروج منها، ويتمنَّى أن لو طالت أيضًا، بخلاف الآخر: إذا انتهت الصَّلاة فرح بالخروج منها، والخلاص من هذا الحمل الثَّقيل الَّذِي على كاهله.

وتبقى الصَّلاة ميزانًا يوميًّا يزن به العبد نفسه، وإذا حضر وقت الصَّلاة ظهر للعبد من نفسه حال قلبه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أنَّ ما تقرَّ به العين أعلى من مجرَّد ما يحبُّه فالصَّلاة قُرَّة عيون المُحِبِّين في هذه الدُّنيا لما فيها من مناجاة مَن لا تقرُّ العيون ولا تطمئنُّ القلوب ولا تسكن النُّفوس إلَّا إليه، والتَّنعُّم بذكره والتَّذلل والخضوع له والقرب منه ولا سِيَّما في حال السُّجود وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربِّه فيها، ومن هذا قول النَّبِيِّ: يا بلال أرحنا بالصَّلاة

فأعلم بذلك أنَّ راحته في الصَّلاة، كما أخبر أنَّ قُرَّة عينه فيها، فأين هذا من قول القائل نُصَلِّي ونستريح من الصَّلاة.

فالمُحِبُّ راحته وقُرَّة عينه في الصَّلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك بل الصَّلاة كبيرة شاقَّة عليه إذا قام فيها كأنَّه على الجمر حتَّى يتخلَّص منها وأحبُّ الصَّلاة إليه أعجلها وأسرعها؛ فإنَّه ليس له قُرَّة عين فيها ولا لقلبه راحة بها، والعبد إذا قرَّت عينه بشيء واستراح قلبه به فأشقُّ ما عليه مفارقته والمتكلِّف الفارغ القلب من الله والدَّار الآخرة المبتلى بمحبَّة الدُّنيا أشقُّ ما عليه الصَّلاة وأكره ما إليه طولها مع تفرُّغه وصحَّته وعدم اشتغاله

وممَّا ينبغي أن يعلم أنَّ الصَّلاة الَّتِي تقرُّ بها العين ويستريح بها القلب هي الَّتِي تجمع ستَّة مشاهد:

المشهد الأوَّل الإخلاص، وهو أن يكون الحامل عليها والدَّاعي إليها رغبة العبد في الله ومحبَّته له وطلب مرضاته والقرب منه والتَّودُّد إليه وامتثال أمره بحيث لا يكون الباعث له عليها حظًّا من حظوظ الدُّنيا البتَّة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربِّه الأعلى محبَّة له وخوفًا من عذابه ورجاء لمغفرته وثوابه.

المشهد الثَّاني مشهد الصِّدق والنُّصح، وهو أن يُفَرِّغ قلبه لله فيها ويستفرغ جهده في إقباله فيها على الله وجمع قلبه عليها وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهرًا وباطنًا، فإنَّ الصَّلاة لها ظاهر وباطن؛ فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة، وباطنها الخشوع والمراقبة وتفريغ

القلب لله والإقبال بكُلِّيَّته على الله فيها، بحيث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره فهذا بمنزلة الرُّوح لها والأفعال بمنزلة البدن فإذا خلت من الرُّوح كانت كبدن لا روح فيه.

المشهد الثَّالث مشهد المتابعة والاقتداء، وهو أن يحرص كلَّ الحرص على الاقتداء في صلاته بالنَّبِيِّ ويُصَلِّي كما كان يُصَلِّي ويعرض عمَّا أحدث النَّاس في الصَّلاة من الزِّيادة والنُّقصان والأوضاع الَّتِي لم ينقل عن رسول الله شيء منها ولا عن أحد من أصحابه.

المشهد الرَّابع مشهد الإحسان وهو مشهد المراقبة وهو أن يعبد الله كأنَّه يراه، وهذا المشهد إنَّما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتَّى كأنَّه يرى الله سبحانه فوق سمواته مستويًا على عرشه يتكلَّم بأمره ونهيه ويُدَبِّر أمر الخليقة فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك كلَّه بقلبه ويشهد أسماءه وصفاته ويشهد قيومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا آمرًا ناهيًا، يحبُّ ويبغض ويرضى ويغضب ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور. ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلِّها؛ فإنَّه يوجب الحياء والإجلال والتَّعظيم والخشية والمحبَّة والإنابة والتَّوكُّل

والخضوع لله سبحانه والذُّلّ له ويقطع الوسواس وحديث النَّفس ويجمع القلب والهمَّ على الله.

المشهد الخامس مشهد المنَّة وهو أن يشهد أنَّ المنَّة لله سبحانه كونه أقامه في هذا المقام وأَهَّلَه له ووفَّقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته، فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]. فالله سبحانه هو الَّذِي جعل المسلم مسلمًا والمُصَلِّي مُصَلِّيًا، كما قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨]. وقال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٤٠]. فالمنَّة لله وحده في أن جعل عبده قائمًا بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه.

المشهد السَّادس مشهد التَّقصير وأنَّ العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه فهو مقصِّر وحقُّ الله سبحانه عليه أعظم والَّذِي ينبغي له أن يُقَابَل به من الطَّاعة والعبوديَّة فوق ذلك بكثير وأنَّ عظمته وجلاله سبحانه يقتضي من العبوديَّة ما يليق بها»[(١)].

أعاننا الله أجمعين على ذكر وشكره وحسن عبادته، وأصلح لنا شأننا كلَّه.

---

(١) رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه (٣٤).